مقارنة تحليلية بين آراء الزمخشري وأبي السعود حول الالتفات في القرآن الكريم

سيد بابك فرزانه، أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الحرة الإسلامية، إيران
Farzaneh@srbiau.ac.ir
عليرضا باقر، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الحرة الإسلامية، إيران
Ali.Baqer@iauctb.ac.ir
عزيز رئيسي، طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الحرة الإسلامية، إيران
raeisi.ozair@gmail.com

Analytical comparison between al-Zamakhshari and Abu al-Saud's views on turning around the Noble Qur'an

Syed Babak Farzana
a professor in the Department of Arabic Language and Literature at Al-Hurra Islamic University , Iran
Ali Reza Baqer
Assistant Professor in the Department of Arabic Language and Literature at Al-Hurra Islamic University , Iran
Aziz Raisi
PhD student in the Department of Arabic Language and Literature at Al-Hurra Islamic University , Iran

الملخص:-

يعدّ الزمخشري أحد أبرز النقاد في الأدب العربي ممن قاموا استناداً على آرائهم وأفكارهم الخاصة، بالتقدم خطوة في مجال النقد والأدب العربي. وتتمثل إحدى نظرياته في تطوير النقد الأدبي حول فن الالتفات ووظيفته، حيث يعدّ هذا الفن أحد أكثر التقنيات اللغوية شيوعاً في لغة القرآن، والذي يوجد له وظيفتان وفقاً لرأي الزمخشري؛ وظيفة عامة تتعلق بالبعد الجمالي لهذا الفن وهو يؤدي إلى بروز آيات القرآن وتحفيز انتباه المتلقي من خلال كسر الروتين الطبيعي للكلام، بينما ترتبط وظيفته الأخرى بالجانب الدلالي له، وهي تتعلق بسياق الكلام. وقد قام الزمخشري بدراسة وتحليل آيات من القرآن وفقاً لهذه النظرية، وكان لنظريته تأثير كبير على العلماء الذين أتوا بعده، لدرجة أن هذه الطريقة هيمنت على مجتمع النقد والأدب العربي لمدة طويلة وتركت تأثيرها على العديد من العلماء. وكان أبو السعود العمادي أحد العلماء الذين تأثروا كثيراً بآراء الزمخشري فيما يتعلق بتوظيف الالتفات في الآيات القرآنية، وذلك في كتابه في التفسير الذي يحمل عنوان "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، ولكن تأثره هذا لم يبقَ في نطاق التقليد المحض، بل خطا خطوة مهمة في تحليل الالتفات القرآني من خلال تحليلاته العميقة المستمدة من سياق الكلام وعلم البلاغة.

الكلمات المفتاحية: الإلتفات، تغيير الضمائر، الزمخشري، أبو السعود.

Abstract:-

Al-Zamakhshari is considered one of the most prominent critics of Arabic literature who, based on their own opinions and ideas, took a step forward in the field of Arab criticism and literature. One of his theories is the development of literary criticism about the art of turning and its function, as this art is one of the most common linguistic techniques in the language of the Qur'an, which according to Zamakhshari has two functions. A general function related to the aesthetic dimension of this art, which leads to the prominence of the verses of the Qur'an and stimulates the recipient's attention by breaking the natural routine of speech, while its other function is related to the semantic aspect of it, and it is related to the context of speech. Al-Zamakhshari studied and analyzed verses from the Qur'an according to this theory, and his theory had a great influence on the scholars who came after him, to the point that this method dominated the Arab criticism and literature community for a long time and left its influence on many scholars. Abu Al-Saud Al-Emadi was one of the scholars who were greatly influenced by Zamakhshari's views regarding the use of attention in the Qur'anic verses, in his book on interpretation entitled "Guiding a sound mind to the merits of the noble book," but his influence with this did not remain within the purely tradition, but rather took a step Important in analyzing Quranic attention through its in-depth analyzes drawn from the context of speech and the science of rhetoric.

Key words: turning, changing pronouns, Al-Zamakhshari, Abu Al-Saud.

المقدمة وشرح الموضوع:

يعدّ الالتفات أحد أبرز مميزات أسلوب القرآن الكريم وقد ظهر في العديد من الآيات بشكل بارز، ومنذ المرات الأولى التي تطرق فيها النقاد والباحثون العرب إليه في كتاباتهم ومؤلفاتهم فيما يتعلق ببلاغة القرآن، لم يغب عن آرائهم وأفكارهم هذا البناء اللغوي في القرآن الكريم، ولكن كان كلٌّ منهم يتطرق إلى شرح هذه الظاهرة وتعيين حدودها ونقاطها وفقاً لمعرفته وفهمه لها. ومن خلال الاطلاع على الكتب النقدية والبلاغية القديمة يمكن الاستنتاج أن تعريفات الالتفات كلها والاستشهادات عليه قبل الزمخشري كانت مبهمة وضيقة نوعاً ما، وكانت تتضمن في مجموعها مواضيع بلاغية أخرى (يُنظر: طبل، ١٩٩٠: ٢٠-١٦)، وقد استمر ذلك حتى تطرق الزمخشري إلى شرح هذا المصطلح في كتابه "الكشاف" (نفسه: ٢٠) حيث عرّفه بأنه "أي نوع من أنواع التغيير في سياق الكلام وأسلوبه" (العسكري، ١٤١٩: ٣٩٢) وشرحه بدقة وتفصيل وقال في تعريفه: ((هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ١: ١٣).

يظهر لنا من هذا التعريف أن الزمخشري يحصر الالتفات في كونه عبارة عن تغيير في الضمائر. وفضلاً على الإنجازات التي حققها الزمخشري في كتابه فيما يتعلق بالبلاغة العربية، فقد كان له أيضاً في كتابه تفسير الكشاف إشارات خفية ودقيقة حول وظيفة الالتفات الجمالية والدلالية، وقد كانت آراؤه هذه محطّ اهتمام الكثير من البلاغيين والمفسرين لمدة طويلة، حتى جاء أبو السعود العمادي في القرن التاسع وأضاف إلى آراء الزمخشري مستفيداً منها ومؤسساً عليها في كتابه التفسيري "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" وبهذا يكون قد خطا خطوة أخرى في هذا الفن البلاغي.

نحاول في هذه الدراسة أن نتطرق إلى نقد ودراسة آراء الزمخشري وأبي السعود في بعض الالتفاتات القرآنية ضمن التطرق إلى فن الالتفات في الأدب العربي ومراحل تطوره في البلاغة العربية، ومن البديهي ألا يتسع هذا البحث ليشمل الالتفاتات كلها فهذا يتطلب أن يُخصَّص لذلك مؤلفات عديدة وضخمة.

أسئلة الدراسة وفرضيتها

تحاول هذه الدراسة أن تجيب على أسئلة معينة، وهي:

- كيف تحقق الالتفات في الكلام وفقاً لنظرة الزمخشري وأبي السعود؟
- ماذا كانت وظيفة الالتفات وفقاً لنظرة الزمخشري وأبي السعود؟
- ما هي الكتب التي كانت محطّ انتباه أبي السعود في إظهار وظيفة الالتفات؟

تقوم هذه الدراسة على مجموعة من الفرضيات وهي تعمل على تأكيدها أيضاً، وتلك الفرضيات هي:

- يعتبر الزمخشري وأبو السعود أن الالتفات يحدث بتغيير الضمير المقترن بتناظر مرجع الضمير المنقول منه.
- عيّن الزمخشري وظيفتين للالتفات وهما وظيفة عامة تتعلق بجمالية الالتفات والأخرى خاصة تتعلق بدلالية الكلام وهو ما يتم استنباطه من السياق، وقد تبعه أبو السعود في رأيه هذا.
- قام كل من الزمخشري وأبي السعود بالاستفادة من المكونات المتعلقة بالنص وما بعد النص لشرح الجانب الدلالي للكلام.

خلفية البحث:

تنطلق دراسة ظاهرة الالتفات والبحث فيها في الكتب البلاغية التقليدية من جذور قديمة جداً، فهي تعود إلى كتب البلاغة الأولى، ولكنها كانت تحمل عناوين مختلفة، من قبيل الصرف والانصراف والعدول والانحراف وغير ذلك... ولكن في الدراسات المعاصرة تمكّن هذا المصطلح من احتلال مكانته وشغل جزءاً مثيراً للانتباه من أعمال الباحثين والنقاد العرب والفارسيين، ويمكننا أن نذكر من بين هذه الدراسات:

- كتاب ((أسلوب الإلتفات في البلاغة القرآنية)) تأليف حسن الطبل وهو كتاب جامع حول الالتفات العربي- القرآني. وقد قام المؤلف فيه بدراسة مواضيع تتعلق بالالتفات، وشرحها في ثلاثة فصول. درس في الفصل الأول الجذور التاريخية لهذا

المصطلح والفنون التي ارتبطت بالالتفات في كتب البلاغة القديمة جميعها، وحتى المواضيع الخلافية التي طرحت حول هذه الظاهرة، ثم تطرق في النهاية إلى آراء أشخاص يعدّون أي تغيير في أسلوب الكلام التفاتاً. في الفصل الثاني نظر إلى الالتفات من وجهة نظر الأسلوبية المعاصرة ودرس وجوه التشابه والاختلاف بين الالتفات والأسلوبية، ومن ثم حلّل في الفصل الثالث بعض الآيات القرآنية التي يظهر فيها الالتفات بأشكاله المختلفة، ومنها الالتفات في الصيغة، والالتفات في العدد، والالتفات في الأدوات، والالتفات في الضمائر، والالتفات في الصيغة النحوية والمعجمية.

- مقالة "بلاغة الالتفات في القرآن الكريم" التي كتبها إبراهيم زارعي‌فر والتي انتشرت في مجلة الصحيفة المبينة عام ١٣٨٨هـ.ش. وضّح الكاتب في هذه المقالة رأي البلاغيين أولاً في إظهار حدود وثغور هذا المصطلح وبيّن رأيين متناقضين بشأنه، وهما يتمثلان في الخروج عن مقتضى الظاهر والتغيير في الضمائر، وفضّل الرأي الثاني في نهاية شرحه، ووفقاً لهذا الأساس بحث في خمسة أنواع من الضمائر وحللها وبيّن آراء المفسرين فيما يتعلق بوظيفة الآيات المختارة. من الجدير بالقول أن هذا الباحث يعتقد أن الالتفات من الخطاب إلى التكلم محطّ ترديد وهو يرفض استشهاد بعض البلاغيين فيما يتعلق بهذا الخصوص.

- مقالة "تطبيقات ووظائف فن الالتفات في القرآن" من تأليف محمد آ.س. عبد الحليم، والتي ترجمها أبو الفضل حري في مجلة الدراسات القرآنية الفصلية عام ١٣٩١ش. (٢٠١٢م) الذي نهج منهج حسن طبل نفسه، واعتبر أن الالتفات يشكل أيّ تغيير في سياق الكلام، وذكر كذلك تحليلات مأخوذة من تفاسير القرآن أثناء إيراده للشواهد والأمثلة.

- مقالة "تطبيق الالتفات في نسيج الكلام الإلهي" التي كتبها عبد الله رادمرد و هما رحماني في مجلة اللسان المبين، عام ١٣٩١ش (٢٠١٢م) والتي قام فيها الباحثان بالإطناب في شرح أهمية الالتفات وتطبيقاته واستخداماته البلاغية وأنواعه في اللغة الفارسية وتطرقوا إلى دراسة أنواع الالتفات في القرآن، فدرسوا الأنواع الثمانية

للالتفات والتي هي: تغيير الضمائر، وتغيير العدد، وتغيير حروف الجر، وتغيير المخاطب، وتغيير زمان الفعل، وتغيير الحالة القواعدية، واستخدام الاسم بدلاً من الضمير والاستخدام المتبادل لاسمين بمعنىً واحد.

- رسالة في درجة الماجستير بعنوان "فن الالتفات وأهدافه في القرآن الكريم" والتي كتبها حامد علي بور، في جامعة فردوسي في مشهد عام ١٣٨٩ش (٢٠١٠م). وقد تطرق الباحث في الفصل الأول منها إلى تعريف الالتفات ومكانته في تاريخ علوم البلاغة، وفي الفصل الثاني تطرق إلى تعداد فوائد الالتفات وأهدافه البلاغية في أربعة عشر موضعاً، بما في ذلك التعبير عن كمال قوة الله وإظهار اللطف الإلهي والتفخيم والتعظيم، والتحقير والإذلال، والتهديد، والنصيحة والمبالغة وغيرها. في الفصل الثالث عدد نماذج من الالتفات القرآني في ثلاثة أقسام وهي الالتفات من التكلم إلى الغيبة وبالعكس، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب وبالعكس والالتفات من التكلم إلى الخطاب وبالعكس.

بالانتباه إلى الدراسات والأبحاث المذكورة أعلاه يمكننا أن نبين الفرق والتجديد بين هذه المقالة والبحوث السابقة لها في عدة نقاط منها؛ أولاً: إن هذا البحث سيبتعد عن التقسيمات والتعميم في تقسيم الالتفات وسيحصر الالتفات في تغيير الضمائر وانزياحاتها فقط خلافاً للبحوث السابقة، وذلك لأن الزمخشري وأبا السعود حصرا الالتفات في هذا النوع وحسب، والتجديد الآخر في هذا البحث يكمن في أن الدراسات السابقة لم تتطرق إلى مقارنة وتقييم آراء الزمخشري وأفكاره مع أبي السعود فيما يتعلق بفن الالتفات في آيات القرآن.

ماهية الالتفات وسير تطوره في البلاغة العربية:

الالتفات هو صرف الوجه من جهة إلى أخرى (يُنظر: ابن منظور، ١٤١٤، ج٢: الجذر لفت) وهو اصطلاحاً من أكثر الاصطلاحات إبهاماً في كتب البلاغة حيث عرفه النقاد على اختلافهم تعاريف مختلفة. يظهر من الآراء الواردة في كتب البلاغة أن الأصمعي كان أول من تطرق إلى هذا المصطلح واستخدمه على أنه "انتقال من معنى إلى آخر" (القيرواني، ١٩٨١، ج٢: ٤٦). وقد ذكر ابن المعتز بعد الأصمعي هذا المصطلح في كتابه "البديع" في قسم محاسن الكلام، وقال في تعريفه: الالتفات هو أن يعود المتكلم من الخطاب إلى الإخبار ومن

الإخبار إلى الخطاب أو أن ينتقل من معنى إلى آخر (ابن المعتز، ١٩٨٢: ٥٨). فالالتفات وفقاً لتعريف ابن المعتز يدلّ على تغيير الضمائر وتغيير المعنى معاً.

وقد جاء قدامة بن جعفر بعد ابن المعتز في تعريفه لهذا المصطلح فعرفه تعريفاً يختلف اختلافاً كلياً عن التعاريف السابقة، فنراه يقول في تعريفه أن "الالتفات يعني أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظنَّ بأنَّ راداً يردُّ عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه أو يحل الشك فيه." (قدامة بن جعفر، ١٣٠٢: ٥٣).

ويعرّف ابن رشيق القيرواني هذا الاصطلاح كما عرفه ابن المعتز تماماً وقد حصر تطبيقه واستخدامه على نوعين: "تغيير الضمائر" و"الانتقال من معنى إلى آخر" (يُنظر: القيرواني، ١٩٨١، ج٢: ٤٧-٤٥).

وقد ذكر أبو علي الحاتمي تعريف قدامة بن جعفر نفسه فقال: ((هو أن يكون الشاعر أخذ في معنى فيعدل عنه إلى غيره، قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة في الأول، وزيادة في حسنه)) (الحاتمي، ١٩٧٩، ج١: ١٥٧).

لقد تطرق هؤلاء النقاد إلى تعاريف هذا الفن، ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن جوانبه الجمالية والدلالية، وحتى إن تعاريفهم مختلفة ومبهمة إلى حدّ تشمله فنون علم المعاني والبديع المختلفة من قبيل الاستطراد والاعتراض والتذييل والتتميم والاحتراس وغير ذلك. وقد بقي هذا الأمر حاكماً على النقد الأدبي والبلاغة العربية لمدة طويلة حتى جاء الزمخشري وخلق إبداعاً في هذا الفن، وقد قام في البداية بتضييق دائرة شمولية هذا المصطلح وحصر الالتفات بتغيير الضمائر التي تدل على المدلول نفسه، فنراه يقول في شرح جمالية الالتفات: ((ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ج١: ١٤). يمكن الاستنتاج من كلام الزمخشري هنا أن المستمع قد يملّ من خطاب المتكلم إذا بقي على أسلوب واحد، وعندها لن يجد ما يكفي من المتعة لمتابعة الإصغاء، ولكن عندما يحدث تغيير في الضمائر وفي بنية الكلام ويُبتعد عن المعايير المألوفة له تطرأ على الكلام دينامية وعذوبة وطراوة. يشير الزمخشري في تتمة عبارته إلى النواحي الدلالية لهذا الفن بقوله: ((وقد تختص مواقعه بفوائد)) (نفسه)، ويقصد بعبارته هذه أن الفوائد الدلالية لهذا

الفن تنتج من السياق ومن مواقع إيراد الكلام.

بقيت مجموعة من قبيل ابن الأثير ويحيى بن حمزة وغيرهما ممن جاؤوا بعد الزمخشري على ما كان عليه من سبقوه، واعتبروا أن الالتفات يشكل أي نوع من أنواع الخروج عن مقتضى الظاهر وأي تغيير في بنية الجملة المألوفة (يُنظر: العلوي، ١٤٢٣، ج٢: ٧١) ولكن جمهور البلاغيين اتعبوا أسلوب الزمخشري واعتبروا الالتفات منحصراً في تغيير الضمائر، بشرط أن يكون مرجع الضمير الذي تغير هو مرجع الضمير السابق نفسه: ((شرط الالتفات أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي الْمُنْتَقَلِ إِلَيْهِ عَائِدًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إلى المنتقل عنه وَإِلَّا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي أَنْتَ صَدِيقِي التفات)) (السيوطي، ١٩٧٤، ج٣: ٢٩٣).

بقي تأثير الزمخشري ملحوظاً لدى علماء البلاغة والمفسرين لقرون عدة، وكمثال على ذلك فإن ابن الأثير، الذي وسّع دائرة مفهوم الالتفات عن تلك التي وضعها الزمخشري في نظريته، على الرغم من عدم صحة رأيه، رفض في كتابه المثل السائر نظرية الزمخشري من حيث البعد الجمالي (يُنظر: ابن الأثير، لاتا، ج٢: ١٣٦)، ولكنه فيما بعد استخدم الفوائد الدلالية من وجهة نظر الزمخشري حيث يقول: ((الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه)) (نفسه: ١٣٧).

ونرى كذلك أحمد بن حمزة العلوي أيضاً في كتاب الطراز يؤيد رأي الزمخشري ويشيد به أثناء رده ومناقشته لرفض ابن الأثير لرأي الزمخشري (يُنظر: العلوي، ١٤٢٣، ج٢: ٧٢). وكان أبو السعود العمادي صاحب القسط الأكبر من التأثر بآراء الزمخشري مقارنة ببقية العلماء الذين تأثروا بتلك الآراء فيما يتعلق بالالتفات، وذلك لأنه تطرق إلى الوظيفة الدلالية للالتفات أثناء دراسته للآيات المتعددة التي تحوي على الالتفات، وهذا الأمر كما ذكرنا سابقاً، كان من ابتكارات الزمخشري. وفيما سيأتي سنعرض المقارنة التحليلية للمواضيع التي شرحها كل من الزمخشري والعمادي فيما يتعلق بالوظيفة الدلالية للالتفاتات القرآنية، وذلك لنتمكن من معرفة مقدار تأثره بالزمخشري ومقدار نجاحه.

دراسة ومقارنة آراء الزمخشري وأبي السعود فيما يتعلق بالالتفاتات القرآنية:

يتّضح لنا أن نمو وتطور فن الالتفات وصل إلى النقطة التي حصرها جماعة البلاغيين

حين جعلوها مقتصرة على الانتقال من ضمير إلى آخر، شريطة أن يكون مرجع كلا الضميرين واحداً. وفقاً لذلك، يتحقق لدينا ستة أنواع من الالتفات، وهي:

- الالتفات من المتكلم إلى المخاطب.
- الالتفات من المتكلم إلى الغائب.
- الالتفات من المخاطب إلى المتكلم[1].
- الالتفات من المخاطب إلى الغائب.
- الالتفات من الغائب إلى المخاطب.
- الالتفات من الغائب إلى المتكلم (القزويني، لاتا، ج٢: ٨٩-٨٧).

١ـ الالتفات من المتكلم إلى المخاطب.

الشواهد على هذا النوع من الالتفات في القرآن قليلة جداً، ولربما كانت آية: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢) الشاهد الوحيد على الالتفات من المتكلم إلى المخاطب. قال بعض البلاغيين أن المعنى المقصود ((وما لكم لا تعبدون الذي فطركم))، لأن "ترجعون" ذُكرت في نهاية الآية (نفسه، ج٢: ١٢٣ و السكاكي، ١٩٨٧: ٢٤٥) ولكن يبدو أنه لو كان أصل الكلام ((وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ أُرجَعُ)) لحقق ذلك انسجاماً أكبر مع بقية الآيات التالية، وذلك لأن الآيات التالية جاءت جميعاً مع ضمير المتكلم: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً . . . إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (يس ٢٥-٢٣). ولكن يبدو أن الأشخاص الذين اعتقدوا أن أصل الكلام يطابق الرأي الأول اعتبروا أن هذه الآية منسجمة مع الآيات السابقة، وذلك لأنه في الآيات السابقة وردت الضمائر على أنها ضمائر مخاطب وابتداءً من هذه الآية تغير الضمير إلى المتكلم، وفي هذه الآية نفسها يظهر الالتفات، وقد أدى هذا الأمر إلى ألا تتبدل الآيات من ضمير الجمع المخاطب إلى المتكلم المفرد مرة واحدة، وقد كانت هذه الآية -في الحقيقة- بمثابة جسر بين الآيات السابقة بضمير الجمع والآيات اللاحقة بضمير المتكلم المفرد، ولذلك فإن هذه الآية تحتوي على كلا النوعين من الضمائر ونتيجة لذلك فالالتفات فيها من الخطاب إلى التكلم. ولكن يجب الانتباه إلى أنه

نظراً لكون الضمائر تصبح ضمائر متكلم اعتباراً من هذه الآية وما يليها، فإنه يوجد لدينا ضمير متكلم أساسي وآخر فرعي اعتباراً من هذه الآية وخاصة فيما يتعلق بتفسير هذا الآية، فحين سأل قوم هذا الشخص: هل تتبع هؤلاء الرسل؟ أجابهم: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢) (الطبري، ١٩٨٣، ج٢٢: ١٠٣). لذلك فإنه من المتوقع أن يأتي "أرجع" بدلاً من "ترجعون" ولكن استبدال الفعل بضمير المخاطب بدلاً من المتكلم أدى إلى تأثير أعمق على المخاطب فيما يتعلق بالفعل والذي هو البعث.

يقول الزمخشري فيما يتعلق بهذا الالتفات أنه نظراً لكون المتكلم يريد أن يخاطب المخاطب بلطف وسماحة فإنه بدلاً من أن ينصحهم (قومه) نصحَ نفسه، لأن هذا يجعل من النصيحة أصدق وأصفى، وبهذا فإنه يريد لهم ما أراده لنفسه (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٤: ١٠).

على الرغم من أن أبا السعود لم يُشر بشكل صريح إلى الالتفات في هذه الآية ولكنه وضّح أنه: ((ثمَّ عاد إلى المساق الأول)) في عبارته: ((تلطُّفٌ في الإرشاد بإيراده في معرض المُناصحة لنفسه وإمحاض النُّصح حيثُ أراهم أنَّه اختارَ لهم ما يختارُ لنفسه والمرادُ تقريعُهم على تركِ عبادةِ خالقِهم إلى عبادةِ غيرِه كما ينبىء عنه قوله {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} مبالغةً في التَّهديدِ ثمَّ عاد إلى المساق الأول فقال أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)) (العمادي، لاتا، ج٧: ١٦٤-١٦٣) وقد أشار إلى الوظيفة الدلالية للالتفات أثناء إشارته إلى الالتفات في هذه الآية الشريفة، حيث تكمن هذه الوظيفة الدلالية في النصيحة الصادقة واللطف في طريقة النصح، وهو ما تكلم عنه الزمخشري بالتفصيل تحت عنوان الفائدة البلاغية لهذا الالتفات، ولكن النقطة التي ذكرها فضلاً علي شرح الزمخشري تتمحور حول أن المراد من استخدام ضمير المتكلم كان توبيخ قومه لتركهم لعبادة خالقهم، والمراد من الالتفات إلى ضمير المخاطب كان المبالغة في التهديد، وهو ما لم يُشر إليه الزمخشري.

وفقاً لهذا يمكن القول أنه على الرغم من أن أبا السعود تأثر بالزمخشري لدى شرحه للفائدة البلاغية للالتفات في هذه الآية الشريفة إلا أنه خرج عن حدود التقليد المحض وابتكر إبداعاً جديداً بما أضافه فيما يتعلق بالمراد من الآية الشريفة والمراد من الالتفات من المتكلم إلى المخاطب.

٢ـ الالتفات من المتكلم إلى الغائب.

يمكن إيجاد العديد من الشواهد من الآيات الشريفة في القرآن الكريم تشير إلى أن الله تعالى أشار إلى أعماله بضمير المتكلم، ومن ثم عدل عن ذلك إلى الألفاظ الظاهرة كقوله "رب" أو "الله" أو ضمائر الغائب "هو" أو "إنه" وذلك لأهداف ومآرب مختلفة، ومن بين الآيات التي حازت على هذا النوع من الالتفات الآية: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الدخان: ٦-٤). حين يتم استخدام ضمير المتكلم في كلّ من التعبيرين "من عندنا" و "إنا كنا"، فإنه من المألوف والمعهود أن تكون التتمة "رحمة منا" ولكنه عدل عن هذا اللفظ، واستخدم لفظ الغائب "من ربك" بدلاً من قوله "منا". يقول الزمخشري في سبب هذا العدول واستخدامه: فائدة هذا الالتفات الإيذان بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٤: ٢٧١). ويقول أبو السعود عن هذا الالتفات أيضاً: ((ووضعُ الربِّ موضعَ الضمير الإيذان بأنَّ ذلكَ من أحكام الربوبية مقتضياتها)) (العمادي، لاتا، ج٨: ٥٩).

كما نرى، أظهر أبو السعود موافقته لرأي الزمخشري في استخدام هذا الالتفات ووظيفته وفائدته البلاغية دون أن يُجري تغييراً في كلامه أو أن يعترض عليه.

من أمثلة الالتفات الأخرى من المتكلم الغائب في كلام الله تعالى الآية الكريمة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ (طه: ٤-٢) إن الكلام في هذه الآية قائم على التكلم ويبدو أنه وفقاً لأصل التركيب النحوي يجب القول: "تنزيلاً منا" ولكنه عدل عن ذلك فجأة إلى الاسم الظاهر "الاسم الموصول مَن" وهذا ما جعل القارئ يواجه حالة من الخروج عن القاعدة البنائية، ولكن ليس هذا الأمر محدوداً لجمالية كسر التقليد وإزالة رتابة الكلام وإثارة انتباه المستمع وحسب، بل إنه يخفي وراءه هدفاً وغاية أخرى تقاطعت مع بلاغة القرآن. يقول الزمخشري عن هذا الهدف: ((فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة. ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة. ومنها أنه قال أولا أَنْزَلْنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع. ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ٥١).

إن الزمخشري -كما نلاحظ- لا يحصر هدف هذا الالتفات بشيء واحد، بل إنه على اعتقاد بأن العديد من الأهداف تتخفى وراء هذا الفن البلاغي، وأولها خلق تنوع وافتتان في الكلام، وهو ما يزيد من جماله وحسنه، والهدف الثاني أن الصفات انسجمت وانتظمت مع لفظ الغائب وكذلك ورد الكلام في البداية بلفظ "أنزلنا" فأسند الفخامة إليه مرة، ومن ثم أعاد إسناد الفخامة إليه مرة أخرى بذكر صفات العظمة والتمجيد (أي خلق السموات والأرض).

يقول أبو السعود عن أهداف الالتفات في هذه الآية الشريفة: ((ونسبةُ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامتِه تعالى بحسب الأفعال والصفات إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق الإبهامِ ثم التفسيرِ لزيادة تحقيق وتقريرٍ وتخصيصُ خلقِهما بالذكر مع أن المراد خلقُهما بجميع ما يتعلق بهما)) (العمادي، لاتا، ج٦: ٤). يمكن الاستنتاج من كلام أبي السعود أنه يوافق الزمخشري في الاعتقاد بأن إسناد الضمير "نا" إلى الفعل "أنزل" يدل على الفخامة، وذلك لأنه عدل عن الفعل بضمير المتكلم إلى الاسم الغائب (الاسم الموصول مَن) واستخدم أوصافاً وأفعالاً تدل على عظمة الخالق بعد الموصول وتؤكدها مرة أخرى. يبدو لنا جلياً أن هذه العبارة منقولة عن كلام الزمخشري تماماً وقد استعارها منه أبو السعود، ولكن النقطة التي أضافها على كلام الزمخشري تكمن في أنه يعتقد أن تأكيد الفخامة وتثبيتها في هذا الالتفات تحقق عن طريق ((الإبهام ثم التفسير))، أي إن الفخامة كانت غامضة في "أنزلنا" ومن ثم اتضحت وتبينت في أفعال وصفات خلق السموات العليا والأرض. يعتقد كاتب هذا السطور أن رأي أبي السعود فيما يتعلق بأن الفخامة تحققت عن طريق ((الإبهام ثم التفسير)) ضعيف نوعاً ما، فالضمير "نا" الذي يدل على الجمع هو بحد ذاته دليل على الفخامة، وليس الفعل "أنزل".

يمكننا الإشارة إلى الآية الكريمة الآتية من بين الآيات الأخرى التي تحوي التفاتاً من المتكلم إلى المخاطب: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨) حيث استخدم في البداية ضمير المتكلم "ي" في قوله ((إني رسول الله إليكم)) ومن ثم استخدم الاسم الظاهر "رسول" في عبارة ((فآمنوا بالله ورسوله)) بدلاً من أن يقول ((فآمنوا بالله وبي)). يقول الزمخشري في تحليله

حين شرح هذا الالتفات: ((عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيرى، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٢: ١٦٧).

وقد بيّن الزمخشري أيضاً عدة أهداف ووظائف للالتفات في هذه الآية وهي: ١- لشرح أوصاف الرسول، ٢- لأن للالتفات ميزة بلاغية، ٣- ليعلم الناس أن الشخص الذي يجب أن يتبعوه ويؤمنوا به شخص مستقل يتمتع بالوصف بأنه أمي ويؤمن بالله وبكلماته؛ بغضّ النظر عمّن يكون هذا الشخص سواء أكان محمداً ﷺ أم غير محمد، ويعود السبب في ذلك إلى جعل الناس عادلين فيما يتعلق بالأنبياء وأن يبتعدوا عن تعصبهم.

يقول أبو السعود فيما يتعلق بدافع هذا الالتفات وهدفه: ((وإيراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ على طريقة الالتفاتِ إلى الغيبة المبالغة في إيجاب الامتثالِ بأمره)) (العمادي، لاتا، ج٣: ٢٨١).

نلاحظ أن أبا السعود قد ذكر هدفاً واحداً لهذا الالتفات وهو عبارة عن المبالغة في إيجاب الامتثال لأمر الله، لأن لفظ "الرسول" الذي جاء بدلاً من الضمير "ي" يحمل أوصافاً محمودة يُعتقد بوجوب اتباعها، في حين إن الضمير "ي" لا يحمل مثل هذا الإلزام والوجوب.

بالمقارنة بين رأيي هذين المفسرين يمكننا الاستنتاج بأن الزمخشري وضح نقاطاً أكثر أثناء تحليل وظيفة الالتفات في هذه الآية، فقد تطرق إلى الوظيفة العامة والجمالية للالتفات فيها، كما ذكر لها وظيفتين دلاليتين، في حين إن أبا السعود لم يُشر سوى إلى موضع لهدف دلالي وهو ما كان الزمخشري قد شرحه أيضاً، ولكن الفارق يكمن في أن معنى الزمخشري دل على وجوب الإيمان بنبي أمي واتباعه، في حين عدّه أبو السعود يدل على المبالغة في الاتباع.

وفضلاً على الالتفاتات التي تم ذكرها وتحليلها أنفاً، لدينا الكثير من هذا النوع من الالتفات والتي لم يتطرق إليها الزمخشري، ولكن أبا السعود شرح الهدف من هذه الالتفاتات بالاتكاء على اجتهاده الشخصي وذوقه البلاغي، ومن ذلك الآية ١٧٢ من سورة البقرة (لتربية المهابة)، الآية ٢١١ من سورة البقرة ((تبكيتهم وتقريعهم بذلك))، الآية ٢٥٣

من سورة البقرة ((إيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم))، الآية ١٤٠ من سورة آل عمران ((لتربية المهابة))، الآيات ٣٣-٣١ من سورة الأنبياء ((لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام))، الآية ٥٦ من سورة النساء ((لتهويل الأمر وتربية المهابة))، الآية ٦٤ من سورة النساء ((تفخيما لشأن رسول الله))، الآية ١٢٢ من سورة النساء ((ترغيب العباد في تحصيل الثواب))، الآية ١٣١ من سورة النساء ((إظهار افتقار الخلائق إلى نعمائه))، الآية ١٥ من سورة المائدة ((دعوة إلى الإيمان بالرسول والقرآن)) وغيره.

٣ـ الالتفات من المخاطب إلى الغائب.

من أشكال الالتفات المهمة توجيه الكلام إلى الشخص المخاطب أولاً ومن ثم عدم توجيه الكلام إليه والانصراف عنه في الكلام، ولهذا الأسلوب أهداف مختلفة يمكن أن تكون مخفية أيضاً، مثل التحقير والغضب وإبعاد الشخص المقصود ليستوعب خطأه، وكأنه أُعرِض عنه وعدلَ عن توجيه كلامه إليه (يُنظر: الرازي، ١٤٢٠، ج١٧: ٢٣٤). من بين الآيات التي يتحقق فيها الالتفات المذكور الآية: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢). خاطب الله تعالى عباده في هذا الآية قائلاً أنا الذي أسيركم في البر والبحر، وحين تكونون في السفينة أو الفلك فهذا الفلك لا يجري إلا بأمر الله بواسطة ريح لطيفة وطيبة. وفقاً لهذا الأساس فإن المألوف والمتعارف أن يُقال: "يسيّركم" و "جرين بكم" ولكن عدل عن ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب في العبارة الثانية لسبب ما، وقد شرح الزمخشري سبب هذا العدول وفائدته بقوله: ((فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٢: ٣٣٨).

كما نلاحظ فإن الزمخشري يعتقد أن فائدة هذا الالتفات تكمن في المبالغة في تقبيح فعل العباد الذين تناسوا ألطاف الله ونعمه وغفلوا عنه، وكأن الله يبين أوضاع هؤلاء العباد لأشخاص آخرين ليرغمهم على أن يَعجبوا من حال هؤلاء العباد الجاحدين ويؤدي ذلك إلى استغرابهم من قبح وفظاعة ما فعله أولئك العباد.

بيّن أبو السعود أيضاً وظيفة الالتفات في الآية المذكورة آنفاً بقوله: ((والالتفاتُ إلى

الغَيبة للإيذان بما لهم من سوء الحالِ الموجبِ للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أحوالِهم ليعجِّبهم منها ويستدعيَ منه الإنكارَ والتقبيحَ)) (العمادي، لاتا، ج٤: ١٣٤).

وكأن أبا السعود بيّن وظيفة لهذا الالتفات كما كانت لدى الزمخشري بالتحديد ولكن الفارق يكمن في أن الزمخشري عدّ هذا الالتفات مبالغة في التقبيح والإعراض عن الفعل السيّئ لهؤلاء العباد في حين إن أبا السعود لم يكن على اعتقاد بالمبالغة في التقبيح والإعراض.

من الشواهد الأخرى التي يصحّ أن تكون لهذا النوع من الالتفات من المخاطب إلى الغائب الآية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٣-٩٢). استخدم في هذه الآية في البداية ضمير المخاطب "كم" مع فعل الأمر ذي الدلالة على الحاضر "فاعبدون" ومن ثم لفت الكلام إلى الفعل الغائب "تقطعوا" وضمير الغائب "هم"، وقد وضّح الزمخشري سبب هذا الانتقال والتغيير في الضمائر بقوله: ((والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله)) (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ١٣٤).

يظهر لنا جلياً في هذه العبارة من تفسير الزمخشري أنه يرى أن الانحراف في استخدام الضمائر كان بهدف إعادة التذكير بما أفسده المفرّقون للآخرين وتقبيح فعلهم هذا عندهم، ويقول لأولئك الذين شرح لهم حال المفرّقين ألا ترون ما أعظم ما ارتكبه هؤلاء من ذنب؟

يذكر أبو السعود أيضاً رأي الزمخشري بكلمات مختلفة قليلاً أو كثيراً حيث يقول: ((التفاتٌ إلى الغَيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعلِ أمره قِطَعاً مُوزّعةً وينهى قبائحَ أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترَون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافةُ الأنبياء عليهم السلام)) (العمادي، لاتا، ج٦: ٨٤).

يمكن الاستنتاج من كلام أبي السعود فيما يتعلق بهذا الالتفات في الآية المذكورة أن رأيه بوظيفة الالتفات كان متأثراً بالزمخشري بشكل كلي وكان رأيه وكلامه مطابقاً لما لدى الزمخشري ولم يُضف إليه أية نقطة.

جاء في الآية ١٢ من سورة النور: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور: ١٢) فالكلام بدأ بالفعل بضمير المخاطب "سمعتم" وكان من المناسب أن يستمر بالأسلوب نفسه ولكنه عدل مباشرة عن الخطاب وانتقل إلى الغائب وبدلاً من القول: ((ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم هذا...)) استخدم الاسم الظاهر "المؤمنون" وضمير الغائب "الواو"، وكان الهدف من هذا الالتفات وفقاً لقول الزمخشري يتجلى في المبالغة في التوبيخ وكذلك صرّح بلفظ "الإيمان" ليكون دالاً عليه في أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن يرفض المؤمن الاتهام والافتراء فيما يخصّ أخاه المؤمن (ينظر: الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ٢١٨).

وقد عرض أبو السعود تحليلاً جميلاً لاستخدام الالتفات في هذه الآية، فهو على اعتقاد بأنه قد عُدل عن "سمعتم" بالعبارة "ظن المؤمنون" وذلك لأنه ردّ فعل الاتهام عن الرسول الأكرم وأصحابه وجعله منسوباً لأشخاص غارقين في الاتهام والافتراء والدليل الآخر أنه يريد بهذا الأمر أن يعزز التوبيخ الموجود في لولا التحضيضية ويقويه (يُنظر: العمادي، لاتا، ج٦: ١٦١).

يمكننا الاستنتاج من خلال مقارنة تحليل هذين المفسرين أن كليهما يعتقد أن الالتفات في هذه الآية يهدف إلى تأكيد التوبيخ، ولكن الفارق بينهما يكمن في أن الزمخشري أشار إلى أن التوبيخ فُهم من لولا التحضيضية وكان الالتفات سبباً في تقويته وتعزيزه وتشديده، والنقطة الأخرى أن الزمخشري اعتقد أن العدول من المخاطب إلى الغائب في الفعل "ظن المؤمنون" يعود إلى سبب تصريحه بأن إيمان المؤمنين يلزم الامتناع عن اتهامهم لإخوانهم في الدين، ولكن أبا السعود يعتقد أن إيراد الفعل بصيغة الغائب أدى إلى إخراج الرسول وأصحابه من حدود اتهامهم للآخرين، لأنه لو قيل "ظننتم" لدخل الرسول وأصحابه في هذا الفعل، ولكن عن طريق الالتفات لن يكون فهم الفعل "ظن المؤمنون" بهذه الطريقة.

وفضلاً على هذه الشواهد التي تم ذكرها وتحليلها آنفاً، يوجد الكثير من الشواهد على الالتفات من المخاطب إلى الغائب في آيات القرآن الكريم والتي لا يتسع المجال هنا لدراستها جميعاً، ولكن يجب القول أنه يوجد العديد من شواهد الالتفات من المخاطب إلى الغائب أيضاً مما كان أبو السعود قد تطرق إلى تحليل وظيفته البلاغية والدلالية، ولكن الزمخشري لم يعرها اهتماماً، ومن هذه الشواهد: الآية ٩ من سورة آل عمران (شرح هيبة ذكر يوم القيامة وعظمته)، الآية ١٤ من سورة الأنفال (توبيخ الكافرين بسبب كفرهم)، الآية ٣٨ من سورة

إبراهيم (إلقاء الهيبة والعظمة وشرح سبب الحكم)، الآية ٦٩ من سورة النحل (شرح عجائب خلق الله)، الآية ٨ من سورة الإسراء (شرح وإظهار هيبة الوعيد وشدته) الآية ٦٤ من سورة النور (شرح الثواب والعقاب) وغيرها...

٤ـ الالتفات من الغائب إلى المخاطب

من أشكال الالتفات الأخرى التي وردت بكثرة في القرآن تغيير الضمير من الغائب إلى المخاطب وكلها تتعلق بأسباب وأهداف بلاغية خفية في سياق النص، فيُعامل الشخص الغائب معاملة المخاطب ويصبح توجيه الكلام له، ومن بين الالتفاتات الجميلة من الغائب إلى المخاطب التي حازت على اهتمام الزمخشري وأبي السعود الآية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٥٣). فقد كانت بداية الآية مع الفعل "أقسموا" ثم تلاه في تتمة الآية استخدام ضمير الغائب "هم" في "أيمانهم" و "أمرتهم"، وكان ما تقتضيه الصيغة النحوية وأسلوب الكلام أن يستمر بالطريقة نفسها، ولكنه غيّر فجأة في أسلوب الكلام من الفعل المخاطب إلى المجزوم بلا الناهية "لا تقسموا" فخرج بذلك على القاعدة الملائمة وشغل القارئ بمحاولة إيجاد الهدف من هذا التغيير في استخدام الفعل. وأثناء إشارة الزمخشري إلى بلاغة هذا الالتفات وأبعاده الجمالية، بيّن أن وظيفته الدلالية تكمن في إدانة المنافقين الذين أكدوا مشاركتهم في الحرب بأغلظ الأيمان (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ٢٥٠) ولكن أبا السعود ذكر أن هدف هذا الالتفات يكمن في منعهم عن فعلهم والوقوف في وجههم (يُنظر: العمادي، لاتا، ج٦: ١٨٨).

لقد اعتقد كلّ من المفسرين بوجود معنى ثانوي للالتفات في الآية المذكورة آنفاً، ولكن الفارق يكمن في أن وجود دلالة المعنى الثانوي في كلام الزمخشري ملحوظ أكثر، وذلك لأن المنع والردع الذي يعتقد به أبو السعود يمكن أن يكون معنى ثانوياً ولكنه لا يختلف كثيراً عن المعنى الأصلي للفعل والذي هو النهي "لا تقسموا".

من الشواهد الأخرى للالتفات من الغائب إلى المخاطب الآية الشريفة: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: ٨-٦). طبقاً للقاعدة المألوفة في هذه الآية فإنه من المناسب أن يأتي بعد الأفعال بضمير الغائب في العبارات "يطغى، رآه، استغنى" كلام

بالصيغة نفسها في "ربك" وأن يقول "ربه" بدلاً منها، ولكنه عدل عن هذا البناء والأسلوب المألوف والمتعارف، واستخدم ضمير المخاطب بدلاً من ضمير الغائب. يرى الزمخشري أن السبب في هذا العدول عبارة عن تهديد الإنسان وتحذيره من عاقبة الطغيان (يُنظر: الزمخشري، ١٤٠٧، ج٤: ٧٧٧).

وقد ذكر أبو السعود الوظيفة نفسها للالتفات في هذه الآية الكريمة، فقد أورد بعد الآية الكريمة ((إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)) قوله: ((تهديدٌ للطاغي وتحذيرٌ لَهُ من عاقبة الطغيان)) (العمادي، لاتا، ج٩: ١٧٩) ثم قال بعدها: ((والالتفاتُ للتشديدِ في التهديدِ)) (العمادي، لاتا، ج٩: ١٧٩). يمكن الاستنتاج من هذا الكلام أن أبا السعود اقتبس المعنى الذي ذكره الزمخشري لهذا الالتفات في الآية وأن يرى أن هذا الالتفات كان وسيلة لتشديد المعنى المذكور وتعزيزه. وبناء على هذا يمكن القول أن أبا السعود اقتبس الجانب الدلالي للالتفات في هذه الآية من قول الزمخشري ومن ثم أضاف إليه معنى التأكيد والتشديد. وفقاً لنظر كاتب هذا المقال فإن أبا السعود كان يخطو على الطريق الصحيح في كلامه، فعبارة((إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)) تحمل مفهوم التهديد بشكل خفي في ثناياها، وقد أكد الالتفات هذا المفهوم وعزّزه.

نرى في الآية ٣ و٤ من سورة التحريم التفاتاً من الغائب إلى المخاطب، فبعد أن يخاطب الله تعالى نساء الرسول بضمير الغائب في تلك الآية يجعل اثنتين منهن محط الخطاب في الآية الرابعة مباشرة: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم: ٤-٢). يكتب الزمخشري معلقاً على هذه الآية أن الخطاب في "إن تتوبا" موجّه إلى حفصة وعائشة بصيغة الالتفات والسبب في هذا الالتفات أن يكون العتاب واللوم لهما بشكل أدق (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٤: ٥٦٦).

وقد استخدم أبو السعود رأي الزمخشري كما هو تماماً وقال: ((خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ على الالتفاتِ للمبالغةِ في العتابِ)) (العمادي، لاتا، ج٨: ٢٦٧).

وفضلاً على هذا فإننا نلاحظ وجود آيات عديدة جداً استُخدم فيها الالتفات من الغائب إلى المخاطب أيضاً ولم يعلق أبو السعود على البعض منها بآرائه، كالآية ٥٥ من

سورة الأحزاب والآية ٦٢ و٦٣ من سورة الإسراء كما أنه في أماكن عديدة تطرق أبو السعود إلى المعنى البلاغي والدلالي للالتفات ولكن الزمخشري غفل عن ذلك دون أن يشير إلى تحليل الجوانب البلاغية في تلك الالتفاتات، ومن ذلك مثلاً الآية ٢٢ من سورة النور (الترغيب والترهيب الزائد بالعفو)، والآية ٣٦-٣٤ من سورة القلم (تأكيد على رفضهم)، والآية ٥٦ من سورة النحل (إظهار الغضب الشديد)، والآية ٩٠ من سورة النمل (التشديد)، والآية ٣٤ من سورة الروم (المبالغة)، والآية ٧١ من سورة الزخرف (للترحيب والفخر بأهل الجنة)، والآية ٣٨ و ٣٩ من سورة الطور (تشديد الإنكار والتوبيخ)، والآية ٨٣ من سورة البقرة (تعميم الخطاب من خلال وضع السالفين مكان اللاحقين)، والآية ٣٥ من سورة الأنفال (للتأكيد على أنهم يستحقون العذاب) وغيرها.

٥ـ الالتفات من الغائب إلى المتكلم

في هذا النوع من الالتفات عامةً نرى أن الله تعالى يتكلم عن نفسه بأوصاف وتعابير مثل الله، الرب، الاسم الموصول " الذي" مع صلة دالة على وصف من أوصاف الله، ومن ثم يتابع كلامه مستخدماً ضمير المتكلم مع وصف لنفسه. من بين الآيات التي ورد فيها الالتفات بتغيير الضمير من الغائب إلى المتكلم الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١). نرى أن الكلام بدأ في هذه الآية الشريفة بصيغة الغائب (الذي أسرى) وكما يبدو فإن استمرار الكلام كان أيضاً بصيغة الغائب، ولكن على عكس المتوقع عُدل في الكلام من الغائب (أسرى) إلى المتكلم مع الغير (باركنا). لقد أشار الزمخشري مجرد إشارة إلى وجود الالتفات في هذه الآية (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٢: ٦٤٨) ولم يشرح وظيفته البلاغية، وبالمقابل فإن أبا السعود ذكر وظيفته وفائدته البلاغية وقال أن الالتفات من المتكلم كان لتعظيم وإجلال البركات والآيات المذكورة (العمادي، لاتا، ج٥: ١٥٥).

من الشواهد الأخرى على الالتفات من الغائب إلى المتكلم ما نشهده في الآية الشريفة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣) وذلك أن بداية الآية مع لفظ الغائب (جعل) ولكن في نهايتها انتقل من الفعل الغائب إلى المتكلم "أخرجنا". إن هدف هذا العدول والتغيير في مستوى الضمائر (الغائب

والمتكلم) وفقاً لقول الزمخشري يمكن في تنوع الكلام من جهة و من جهة أخرى أراد أن يقول أن الله يجب أن يُطاع وأن الموجودات الأخرى تطيعه والأنواع جميعها تسلّم لمشيئته ولا تمانع إطلاقاً لإرادته وأمره (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ٦٨).

يعتقد أبو السعود أيضاً أن الالتفات من الغائب إلى المتكلم في هذه الآية كان للاطلاع على الدلالة التي تفضي إلى قدرة الله التامة وحكمته والإشارة إلى أن الفعل المذكور "إنزال المطر" لا يكون سوى من عند قادر مُطاع وصاحب مقام عظيم يطيعه كل شيء ولا يُردّ له أمراً (العمادي، لاتا، ج٦: ٢١).

كما نلاحظ فيما يتعلق بمقارنة رأي الزمخشري وأبي السعود فيما يتعلق بالالتفات في هذه الآية يمكننا الاستنتاج بأن رأي أبي السعود من الناحية الدلالية يطابق رأي الزمخشري تماماً، ولكن الفارق يكمن في أن الزمخشري أشار إلى الجانب الجمالي للالتفات في حين إن أبا السعود لم يُشر إلى هذا الجانب منه.

من الآيات الأخرى التي نلاحظ فيها وجود التفات من الغائب إلى المتكلم الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: ٦٠) وذلك أن بداية الآية كانت مع فعل الغائب "خلق" ثم تبدّل أسلوب الكلام في الفعل "فأنبتنا" وتحول إلى المتكلم. الفائدة من هذا الالتفات وفقاً لقول الزمخشري تعود إلى اختصاص الفعل بذات البارئ تعالى وهي كذلك إشارة إلى أن إنبات الحدائق المتنوعة بخصائص وألوان ومذاقات وروائح وأشكال مختلفة وبجمال متنامٍ وبهيج، وكل هذا من ماء فقط، لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى (الزمخشري، ١٤٠٧، ج٣: ٣٧٦).

لقد شرح أبو السعود رأي الزمخشري كما هو أثناء شرحه لهذا الالتفات حيث قال: "هذا الالتفات لاختصاص الفعل بذات الله تعالى وهو كذلك إشارة إلى أن إنبات الحدائق المتنوعة بخصائص وألوان ومذاقات وروائح وأشكال مختلفة وبجمال متنامٍ وبهيج، وكل هذا من ماء فقط، لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى" (العمادي، لاتا، ج٦: ٢٩٤).

كذلك في الآية: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١) استُخدم الالتفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، وذلك لأنه حين استخدم ضمير الغائب "هو"

كان الأصل أن يقول بعده "فإياه فارهبوه" ولكنه استخدام ضمير المتكلم بدلاً من هذا الضمير الغائب. يعتقد الزمخشري فيما يتعلق بهذا الالتفات المستخدم في هذه الآية أن المقصود منه بثّ الخوف، فالعبارة في الآية أبلغ من العبارة "فإياه فارهبوه" (ينظر: الزمخشري، ١٤٠٧، ج٢: ٦١٠).

ذكر أبو السعود وظيفة لهذا الالتفات وفائدة له تتجلى في "التمهيد لجو الخوف وإلقاء الرعب في القلوب" (العمادي، لاتا، ج٥: ١١٩). كما نلاحظ فإن أبا السعود شرح رأي الزمخشري نفسه، ولكن الفارق يكمن في أن الزمخشري قارن بين بنية الالتفات في الآية مع البنية المألوفة أي "وإياه فارهبوه".

يوجد الكثير من الآيات التي لم يُشر إليها الزمخشري ولم يحللها من بين الآيات التي تحوي على التفات من ضمير الغائب إلى المتكلم، في حين إن أبا السعود تطرق إلى دراستها وتحليلها الدلالي ومن بينها: الآية ٤٨ و ٤٩ من سورة فرقان (لشرح الانتباه التام لموضوع إنزال المطر)، الآية ١٧٤ من سورة النساء (بهدف التزام الناس التام بالبرهان القاطع)، الآية ١٢ من سورة المائدة (للتمهيد للخوف وإضفاء الفخامة على الميثاق الموجود في الآية)، الآية ٩٢ من سورة المائدة (إظهار حدة التهديد والتخويف والتوعد)، الآية ١١ من سورة يونس (التشديد في التوعد)، الآية ٨ من سورة الإسراء (لشدة التحذير والتخويف فيما يتعلق بالعودة إلى الكفر)، الآية ٥٥ من سورة الإسراء (للإشارة إلى فضل الرسول وامتيازه على بقية الأنبياء)، الآية ٤٨ من سورة الطور (للإشارة إلى الاهتمام الأقصى بالرسول ﷺ والانتباه إليه)، الآية ٣٠ و ٣١ من سورة الرحمن (التأكيد على الغضب والانتقام) و...

النتيجة:-

تمكنت هذه الدراسة من الوصول إلى هذه النتائج والحقائق التي تتلخص في أن الالتفات يعدّ أحد الأساليب المتداولة بكثرة في القرآن الكريم وكان منذ القدم محطّ انتباه النقاد في الأدب العربي، ولكن وُجدت الكثير من التعاريف فيما يتعلق بهذا المصطلح بسبب وجود الكثير من الآراء المختلفة التي تتعلق به، وقد سيطرت هذه التعاريف لمدة على مجامع النقد والبلاغة العربية، حتى جاء الزمخشري وطرح تعريفاً دقيقاً لهذا المصطلح ضمن التحليلات المنطقية والعميقة التي قدمها في تفسيره، وبيّن الوظيفة الدلالية للالتفات وفقاً

لسياق الكلام، ومنذ ذلك الحين تبعه العلماء والمفسرون والنقاد في آرائه وأفكاره، وكان من بين المفسرين الذين تأثروا بالزمخشري فيما يتعلق بالالتفات القرآني أبو السعود العمادي الذي تطرق إلى العديد من آراء الزمخشري في تفسيره الذي يحمل عنوان إرشاد العقل السليم في مواضع متعددة كنا قد أشرنا إليها في هذا البحث، ولكن لم يكن تأثره بالزمخشري مقصوراً على التقليد المحض والتكرار الحرفي لأقوال الزمخشري، بل إنه - كما رأينا - قدّم في العديد من المواضع تحليلات دلالية دقيقة وعلمية لوظيفة الالتفات القرآني والتي كانت غائبة في آراء الزمخشري أو أنه - الزمخشري - كان قد عرض تحليلاً سطحياً وبسيطاً لها. يجب القول وفقاً لهذا الأساس أن أبا السعود قدّم أبنية تحليلية عن الالتفاتات القرآنية مؤسَّسة على قواعد آراء الزمخشري ولكنه أضاف إلى أساس الزمخشري وبنى بناء محكماً بالاتكاء على دقة ملاحظته الشخصية.

هوامش البحث

(١) يعتقد معظم البلاغيين أنه لا يوجد دليل على هذا النوع من الالتفات في الآيات القرآنية (يُنظر: السيوطي، ١٩٧٤، ط٣: ٢٩٠). ولكن البعض أشاروا إلى الآية: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ (طه: ٧٣-٧٢). ويعتقد صاحب كتاب كشاف إصلاح الفنون والعلوم أن هذا الشاهد غير صحيح، لأن مرجع الضمير المنقول عنه "أنت" والمنتقل إليه "أنا" (التهانوي، ١٩٩٦: ٢٥٢). وقد استشهد أحمد الهاشمي على هذا النوع من الالتفات بالآية: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠) (الهاشمي، لاتا: ٢١٢)،ولكن باعتقاد كاتب المقال فإن العبارة تتركز على كلمة "رب" وعلى الرغم من إضافة ضمير المخاطب والمتكلم لها إلا أن الكلمة بحد ذاتها تدل على الغائب، لذا لا يوجد التفات هنا. لم يتطرق الزمخشري وأبو السعود إلى شرح الالتفات في هذه الآية ولهذا من المحتمل بشدة ألا يكونوا على اعتقاد بأن الالتفات في هذه الآية يصح أن يكون من الخطاب إلى التكلم. وفضلاً على هذا فإنهم لم يشرحوا في أماكن أخرى أي شرح يؤيد هذا النوع من الالتفات، ولهذا سيكون هذا النوع من الالتفات خارجاً عن نطاق مناقشتنا.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

- ابن الأثير، ضياء الدين، (دون تاريخ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.
- ابن المعتز، عبدالله، (١٩٨٢م). كتاب البديع، اعتني بنشره وتعليق المقدمة والفهارس اغناطيوس كراتشقوفسكي، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، بيروت.
- الإفريقى، جمال الدين ابن منظور، (١٤١٤هـ). لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.
- التهانوي، محمد بن علي، (١٩٩٦م). موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج الطبعة الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.
- الحاتمي، ابو علي محمد بن الحسن بن المظفر، (١٩٧٩م). حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، بغداد.
- الرازي، فخرالدين، (١٤٢٠ق). مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الزمخشري، جار الله، (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين، (١٩٧٤م). الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الطبري، محمد بن جرير، (١٩٨٣م). جامع البيان، بيروت.
- طبل، حسن، (١٩٩٨م). اسلوب الالتفات فى البلاغه القرآنيه، دار الفكر العربى، القاهرة.
- العسكري، أبو هلال، (١٤١٩هـ). الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت.
- العلويّ، يحيى بن حمزة، (١٤٢٣هـ). الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الطبعة الأولى، المكتبة العنصرية، بيروت.
- العمادي، أبو السعود، (دون تاريخ). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- قدامة بن جعفر (١٣٠٢). نقد الشعر، الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب، قسطنطينية.

- القزويني، خطيب، (دون تاريخ). الإيضاح في علوم البلاغة، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت.
- القيرواني، ابن رشيق، (١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل.
- الهاشمي، أحمد، (دون تاريخ). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.